

ثانياً : العدول عن تنوين اسم الفاعل لاقترب وقوع الحدث :

ويأتي السياق بالعدول إلى التركيب الإضافي عن تنوين اسم الفاعل تأكيداً على وقوعه لاقترب وقوع هذا الحدث وظهور بشارته ، وهو مسوغ العدول إلى التراكيب الإضافية الآتية:

متم :

جاء اسم الفاعل "متم" مرة واحدة ، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصف : ٧-٨).

وهي قراءة ((ابن كثير ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ... والباقون بالتنوين والنصب على إعمال اسم الفاعل ، كما هو الأصل))^(١) وقد تشابهت آية الصف "متم نوره" مع قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢).

وكلاهما في سياق يتحدث عن فتح مكة وأهل الكتاب ، غير أن سورة التوبة تتحدث عن امتلاك المسلمين أمر مكة فالسورة نزلت بعد فتح مكة ، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (التوبة: ٢٨) وبعدها الحديث عن قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية .

بينما جاء التركيب الإضافي "متم نوره" في سورة الصف مع حث المؤمنين على الجهاد والبشارة لهم بفتح مكة ، يقول تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا

(١) (البنا ، اتحاف فضلاء البشر ، ٥٤١)

تَصْرُ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (الصف: ١٣) يقول الزمخشري:
((أي عاجلٌ وهو فتح مكة))^(١).

فسورة الصف نزلت قبل فتح مكة أي قبل سورة التوبة ، فترتيب نزول
السورة كما ذكره السيوطي: ((الصف ثم الفتح ثم المائدة ثم التوبة))^(٢) فسورة
الصف قبل بيعة الرضوان وعمرة الحديبية .

ولذلك ذكر الرازي أن المقصود بالكافرين في آية الصف: ((الحاسدين
للرسول (عليه السلام) كان أكثرهم من قريش وهم المشركون))^(٣) وذكر أن
المقصود بالكافرين في آية التوبة: ((رؤساء اليهود والنصارى))^(٤).

فقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ ﴾ بعد
انتصار المسلمين على الشرك ، وفتحهم لمكة ، فجاءت دلالة الفعل المتجدد في
الحال والاستقبال ليفيد قتال اليهود والنصارى والغلبة عليهم ، ومعاداة اليهود
والنصارى معادة متجددة لم تنته ، لذا جاء الفعل "يتم" ليفيد تجدد الإتمام (البقاء
والنصر) بتجدد العداء .

وجاء العدول إلى التركيب الإضافي في آية الصف "متّم نوره" مبشراً
بالفتح القريب ، إفادة الماضي المستمر أثره لداعي معاملة فتح مكة معاملة
المتحقق الموجود ، بغرض التأكيد على الفتح وقربه ، لحث المؤمنين على
الصبر والجهاد ، ولداعي استمرار أثر الفتح "نوره" لأنه فتح لا ينتهي بانتهاء
الحدث ، ففتح مكة وبقاءها على التوحيد إلى يوم الدين .

(١) الزمخشري: الكشاف ، ٣٨٩/٤ ،

(٢) السيوطي ، الإتيان ، ٢٥/١ ،

(٣) الرازي ، التفسير الكبير ، ٤٠/١٨ ،

(٤) نفسه ، ٣١٦/٢٩ ،

جاءل :

جاء اسم الفاعل "جاءل" مضافاً للاسم الظاهر مرتين ، المرة الأولى في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْثُوكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران : ٥٤-٥٥).

والآية خطاب من الله تعالى لعيسى -عليه السلام- لما سيحدث في المستقبل ، فيدل ذلك على أن أصل التركيب الإضافي التثوين "جاءلُ الذين".

يقول الزمخشري عن معنى قوله تعالى: ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: ((يعلمونهم بالحجة ، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ، ومتبعوه هم المسلمون ؛ لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى))^(١).

فالمراد أن الله تعالى سيجعل أتباع الحق فوق الكفار ، فهو وعد من الله للمؤمنين بالدين الحق ، يقول ابن كثير: ((فلماذا لما كانوا (أي: المسلمون) هم المؤمنون بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وأجؤهم إلى الروم ، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة ، وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أمته بأن آخرهم سيفتحن القسطنطينية))^(٢).

فالآية جاءت في مقام طمأنة الله تعالى لنبيه من مكر الكفار ، وهي بشرى للمؤمنين بالنصر ، وتأكيدهم من الله على تأييده للمؤمنين بالحجة الواضحة والدين الحق .

ولذلك جاء هذا المعنى الذي يتحقق في زمن الحال والاستقبال (فأصله التثوين) في صيغة الإضافة لتدل على نفوذ حكم الله ، وتحقق نصره للمؤمنين ،

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٣٢٣/١

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٢٩/٢

وتأكيداً منه سبحانه لأتبيائه وللمؤمنين على حفظه وتأييده لهم دون استبطاء ، فجعل المستقبل في صيغة الماضي المتحقق تأكيداً على وقوعه .

بينما جاء اسم الفاعل "جاعل" منوئاً عاملاً مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتُجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (البقرة: ٣٠) ، وتنوين اسم الفاعل "جاعل" لأن المراد زمن الاستقبال ، ولا يوجد داع للعدول ؛ فالمقام مقام إخبار للملائكة غرضه عرض الأمر عليهم على وجه يتيح لهم التعجب والتخوُّف من جعل خليفة في الأرض ، يقول الزمخشري: ((فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك ؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال (أتجعل ؟) ويجابوا بما أجيبوا به ، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم ... وقيل : ليعلم عباده المشاورة في أمورهم ... وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة))^(١).

فلم يأت اسم الفاعل "جاعل" - هنا - مضافاً وجاء منوئاً على الأصل ؛ ليتيح للملائكة استفهامهم .

فمقام التركيب الإضافي "جاعلُ الذين" مقام طمأننة الله لنبيه ، والتأكيد على نصره للمؤمنين فعدل إلى صيغة الإضافة كي يكون النصر الموعود به في المستقبل كالمتحقق الموجود.

أما مقام اسم الفاعل المنون "جاعلٌ في الأرض خليفة" إنما هو مقام عرض الأمر على الملائكة على وجه يتيح لهم التعجب منه ، فلا يوجد داعي التأكيد الذي يجعل ما يحدث في المستقبل كالمتحقق الموجود ، فجاء المعنى في صيغته الأصلية التي تفيد وقوعه في الزمن المستقبل .

هذا أمر ، والأمر الآخر: أن التركيب الإضافي جاء مع تعاقب أحداث رفع الله لعيسى عليه السلام ونجاته من الكفار ، فنصر الله لمن اتبعوه يكون على وجه التحقق والتأكيد دون استبطاء .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ١/ ١١٨

أما التتوين مع "جاعلٌ في الأرض خليفة" فإنه جاء لهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وكان ذلك بعد زمن من خلقه ، وأحداث معصيته ؛ فجاء التتوين -على الأصل- ليفيد وقوع هبوط آدم إلى الأرض في الزمن المستقبل بعد أحداثٍ يحكيها السياق .

أما المرة الثانية التي جاء فيها اسم الفاعل "جاعل" مضافاً للاسم الظاهر فهي في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ (فاطر: ١) والسياق يشير إلى الخلق بقوله تعالى: (فاطر) ، وقوله: (يزيد في الخلق).

ويذكر قوله: (متى وثلاث ورباع) بسبب الخلق في قوله: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَّتًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (النساء: ٣).

ولعل مجيء التركيب الإضافي "جاعل الملائكة" مع دلالة الخلق يربط بينه وبين التركيب الإضافي "جاعل الذين" ؛ إذ جاء الأخير مع عيسى عليه السلام ، وقد خلقه الله تعالى من غير أبٍ إظهاراً لقدرته سبحانه على الخلق ، كما أن عيسى والملائكة رسل أحياء في السماء.

فدلالة "جاعل الملائكة" دلالة على الخلق في الزمن الماضي المستمر ، فالإضافة هي الصيغة الأصلية لهذه الدلالة ، فإضافة اسم الفاعل -هنا- إضافة محضة ليست عدولاً عن التتوين .

مخزي:

جاء اسم الفاعل "مخزي" مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢) وهى في سياق نصر الله للمؤمنين ، ووقوع الخزي على الكافرين.

وشرح ذلك عند الحديث عن تركيب "معجزي الله" -إن شاء الله- في هذا المبحث.

مخلف:

جاء اسم الفاعل "مخلف" مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ

الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ﴾ (إبراهيم : ٤٦-٤٧).

والوفاء بالوعد أو إخلافه يكون في المستقبل يقول ابن كثير عن معنى

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ﴾: ((أي من نصرتهم في الحياة الدنيا

ويوم يقوم الأشهاد))^(١).

فالأصل التتوين "مخلفٌ وعدَه رسله" وجاء المعنى في صيغة الإضافة

لإفادة تحقق واستمرارهم نفي إخلاف الوعد .

ويشير الزمخشري إلى وجود دلالة التأكيد على نفي إخلاف الوعد من

تقديم "وعده" فيقول: ((فإن قلت: هلا قيل: "مخلف رسله وعدَه" ؟ ولم قدم

المفعول الثاني على الأول ؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً ،

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: ٣١) ثم قال: "رسله" ليؤذن

أنه إذا لم يخلف وعده أحدًا ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، كيف يخلف

رسله الذين هم خيرته وصفوته))^(٢).

إن الزمخشري يرى أن تقديم لفظ وعده تأكيدٌ لنفي إخلاف الوعد، وأنه

- سبحانه - ليس من شأنه ذلك أصلاً ، فضلاً عن كون الموعودين بالنصر

والنجاة من المكر هم رسله.

ولكن هل هذا التأكيد الذي لمسه الزمخشري راجع إلى مجرد التقديم ،

أم أن تقديم لفظ "وعده" جعل اللفظ في موقع المضاف إليه فهو تركيب اسمي-

بدلاً من كونه - في حال تأخره- معمولاً ، فيقع عليه العمل الفعلي المفيد التجدد؟

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٢٩٦/٤

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ٥٤٨/٢

وأياً ما كان الأمر فإن ما قاله الزمخشري من وجود دلالة نفي إخلاف الوعد أصلاً قول يتفق مع دلالة العدول إلى الإضافة ، فدلالة العدول إلى الإضافة غرضه التأكيد على تحقق الوعد ، مراعاةً لسياق الذي يتحدث عن مكر الكفار بالرسول ، فجاء الوعد كالمتحقق الموجود طمأنينة للرسول .

لقد جاء التركيب الإضافي "فلا تحسبن الله مخلفاً وعده رسوله" بعد آية تفيد مكر الكفار بأنبياء الله ، وإحاطة الله سبحانه بهذا المكر ، فالسياق يتطلب التأكيد على عدم إخلاف الله وعده لرسوله على وجه التحقق دون استبطاء ، وهو يذكر بالتركيب الإضافي ﴿جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (آل عمران: ٥٥) إذ جاء في سياق في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٥٤) فاستلزم السياق التأكيد على نصر الله لأتباعه دون استبطاء ؛ فهو نصر كالموجود المتحقق ، بينما جاء التنوين مع تركيب ﴿جَاعِلُ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً﴾ (البقرة: ٣٠) لأن المقام مقام عرض على الملائكة ، ولأن السياق سيذكر أحداثاً قبل نزول آدم إلى الأرض .

وهنا في سورة إبراهيم جاء التركيب الإضافي في قوله: ﴿فَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ مَخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ﴾ في سياق الحديث عن مكر الكفار: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فاستلزم السياق -أيضاً- التأكيد على نصر الله لرسوله ، ونجاتهم من مكر الكفار كما أنجى عيسى عليه السلام في سياق آية آل عمران .

فجاء معنى عدم إخلاف الوعد بالنجاة والنصر في صيغة الإضافة ليكون كالمتحقق الموجود ، تأكيداً على حصوله في الحال أو الاستقبال .
بينما جاء معنى عدم إخلاف الوعد في الصيغة الأصلية الدالة على الحال أو الاستقبال في الآيات الآتية:

١- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾
(آل عمران: ٩).

٢- ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران : ١٩٤).

٣- ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد : ٣١).

٤- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (الزمر : ٢٠).

٥- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْتُونَ﴾ (الحج : ٤٧).

ففي المواضع السابقة يظهر أن الوعد وعدٌ بالجزاء المتأخر عن العمل في الحياة الدنيا.

٦- ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ* وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾
(الروم: ٤-٦).

وهنا يظهر أن هناك فترة زمنية (بضع سنين) بين وعد الله تحققه . وكذلك مع عهد الله جاء تحققه متأخرًا ، لأنه عهد بالجزاء في الآخرة ، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ (البقرة : ٨٠).

فالسياقات التي جاء فيها معنى عدم إخلاف الوعد بصيغة الفعل المضارع الدالّ على الحال أو الاستقبال تدل على وقوع الجزاء (الموعود به)

متأخرًا عن فترة عملهم في الدنيا، فتحقق الوعد بعد فترة زمنية من الوعد ، فجاءت الصيغة الأصلية الدالة على الحال أو الاستقبال لتفيد تحقق الوعد متأخرًا عن وقت الوعد.

وهذا هو الفرق بين هذه السياقات وسياق التركيب الإضافي في سورة إبراهيم ، إذ استدعى سياق التركيب الإضافي التأكيد على تحقق الوعد على وجه السرعة دون استبطاء فهو كالمحقق الموجود ؛ لأن السياق يتحدث عن مكر الكفار يرسل الله ، فجاء الخطاب للرسول محمد صلى الله عليه وسلم مطمئنًا ومؤكدًا بأن وعد الله لرسله كالمحقق الموجود.

وقد يقال: لماذا لم تأتِ السياقات الدالة على الجزاء في الآخرة بصيغة الإضافة تأكيدًا على عدم إخلاف الوعد بالجزاء ، فهو كالمحقق الموجود؟ والإجابة: صحيح أن معنى الجزاء يقبل ذلك ، لكن السياق القرآني لم يعدل إلى الإضافة في سياقات الوعد بالجزاء وجاءت بالصيغة الدالة على الحال أو الاستقبال (الصيغة الأصلية) لأمرين:

١- أن هذه السياقات تتحدث عن وعد الله بالجزاء المتأخر ، فهو حديث عن وعدٍ بالجزاء وليس الجزاء نفسه ، فروعياً في هذه السياقات معنى الوعد في تأخر تحققه عن وقت الوعد ، وهو الأصل ، فالسياق يريد أن يبين أن الجزاء متأخر عن وقت الوعد ، فما زال الجزاء وعدًا من الله للمخاطبين.

٢- السياقات القرآنية تعتمد إلى صيغ تشير إلى الفرق بين مضامينها. فإذا كانت سياقات الجزاء المتأخر جاءت بنفي إخلاف الوعد في صورته الأصلية ، فإن السياق الذي يتحدث عن مكر الكفار بالرسول وإحاطة الله بمكرهم جاء بالتركيب الإضافي، ليبين لنا السياق القرآني الفرق بين تأخر وقوع الوعد (فهو جزاء في الآخرة أو بعد فترة من الزمن) وبين سرعة وقوع الوعد فيما يخص نجاة رسول الله ونصر دعوتهم.

فحقاً يقبل معنى وقوع الجزاء في الآخرة التأكيد بالإضافة ، لكن القرآن الكريم يراعى كل مواضعه ، فأراد أن يفرق بين وعدين ، أحدهما بعد فترة من الزمن ، والآخر لرسول الله دون استبطاء ، فبين بذلك أن هناك وعداً أكثر استحقاقاً لصيغة المتحقق الموجود .

فالعَدول عن تنوين اسم الفاعل إلى إضافته في تركيب "مخلف وعده" غرضه التأكيد على تحقق الوعد بجعله كالماضي المتحقق الموجود ، لأنه وعد بنجاة رسل الله من مكر الكفار لهم .

ظالم:

جاء اسم الفاعل "ظالم" مضافاً مرتين ، وذلك في قوله تعالى :

١- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (النساء : ٩٧)

٢- ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ (النحل: ٢٨)

يقول الرازي: ((والمعنى: تتوفاهم الملائكة في حال ظلمهم أنفسهم ، وهو وإن أضيف إلى المعرفة إلا أنه نكرة في الحقيقة ، لأن المعنى على الانفصال ، كأنه قيل: ظالمين أنفسهم، إلا أنهم حذفوا النون طلباً للخفة ، واسم الفاعل سواء أريد به الحال أو الاستقبال يكون مفصلاً في المعنى ، وإن كان موصولاً في اللفظ))^(١) فليس فالمراد في الآيتين الظلم في الزمن الماضي ، وإلا كانت الصياغة: "إِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ" فإضافة "ظالمي أنفسهم" في الآيتين إضافة لفظية ، أصلها "ظالمين أنفسهم"

(١) الرازي ، التفسير الكبير ، ١٢/١١

لأن "ظالمي" حالٌ نكرة ، ووقوع "ظالمي" حالاً يفيد أن الموت جاء لهؤلاء الظالمين حال ظلمهم، فالسياق يعمد إلى وصف حالهم بالمصرّين على الظلم عند مجيء الموت، ولم يهتدوا إلى التوبة .

وقد جاء التركيب الإضافي في سياق من تتوفاه الملائكة ، فقد قرب عمله وعمره على الانتهاء ، مع بقاء حياته ، فمسوّغ العدول إلى التركيب الإضافي قرب انتهاء حياة الظالمين ، وكأنه انتهى عملهم ، وقد ظلموا أنفسهم وجاءهم الحساب .

فالسّياق يريد الجمع بين دالّتين:

الأولى: مجيء الموت حال ظلمهم مصرّين عليه دون توبة ، لذا جاء اسم الفاعل حالاً، وهى دلالة الصيغة الأصلية التي تفيد زمن الحال .

الثانية: انتهاء قدرتهم على العمل وقرب انتهاء عمرهم ، وعدم السماح لهم بترك الظلم ، فوقت توفي الملائكة لهم لا يسمح فيه بالتوبة ، فجاءت صيغة الإضافة كأنّ وصفهم بالظلم تحقّق لهم على وجه الحصول في الزمن الماضي ، فدلّ على مضي الوصف بالظلم وثبوته ، وإن كان ظلمهم في زمن الحال لوفاة الملائكة لهم .

وقد جاء اسم الفاعل "ظالم" منوّثاً ثلاث مرات ، وذلك في قوله تعالى:

١- ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ (الكهف: ٣٥)

٢- ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ

وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (فاطر : ٣٢)

٣- ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ

مُتَّبِعٌ ﴾ (الصافات: ١١٣)

والملاحظ أن اسم الفاعل المنون تعدّى إلى المفعول به بحرف الجر "نفسه" ؛ ليفيد أن الظالم وقت فعله الظلم لا يريد على نفسه ، أي: ضدها ، فلم يأت لفظ "نفسه" مفعولاً به يقع الفعل عليه ، وإنما جاء مجروراً بحرف الجر اللام ، أي: لها ولتمتعها.

وبدل اسم الفاعل في الآيات الثلاث على الظلم في زمن الحال مع بقاء حياة الظالمين، والآيات تصف قدرة الظالمين على العمل ، وحدث العمل في مقابل الإحسان ، فجاءت الدلالة الفعلية مع التثوين على الأصل ، لعدم وجود داع للإضافة ، كلزوم الظلم ، وقرب انتهاء القدرة على العمل ، كما هو في "ظالمي أنفسهم".

معجز:

جاء اسم الفاعل "معجز" مرتين ، وذلك في أول سورة التوبة، يقول تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ* وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٢-٣)

وقد ذكر ابن كثير أن سورة التوبة آخر سورة نزلت ، وذلك سنة تسع من الهجرة ، وأن سبب نزول هذه الآيات ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ((لما رجع من غزوة تبوك همّ بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقوم للناس مناسكهم ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا))^(١).

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٥٩/٤

ويظهر من سبب نزول الآيات أنها نزلت عندما بلغ الإسلام مبلغًا عظيمًا ، وهي بعد فتح مكة ، وثبّين الآيات أنّ المسلمين يُملّون شروطهم على المشركين ويمهلونهم .

وتركيب "غير معجزي الله" جاء مع الوعيد للمشرّكين بانتهاك أمرهم من مكة بعد الإمهال ، فهو يحلّ بهم في المستقبل ، فمعنى قوله تعالى: ﴿ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ كما يقول الزمخشري: ((لا تفوتونه وإنّ أمهلكم ، وهو مخزيكم، أي: مذلكم في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالعذاب))^(١).

والوعيد يكون بما يأتي في الزمن المستقبل ، فصيغته الأصلية الصيغة العاملة: "غير معجزين الله" ، وإنما جاءت في صيغة الإضافة الدالة على الزمن الماضي لأنّ لها مسوّغًا ، هو: نصر الله المسلمين بالفتح الذي قوّض الشرك وهزم أهله -المخاطبين في الآية- فعمل ما هو وعيد مستقبل معاملة المتحقق الموجود ؛ لوجود مثيل له (فتح مكة) ، ولاقتراب القضاء على مظاهر الشرك بعد الإمهال .

وقد جاء اسم الفاعل "معجز" منوّنًا مرّة واحدة ، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الأحقاف : ٣٢)

كما جاء اسم الفاعلين "معجزين" مقطوعًا عن الإضافة تسع مرات ، وذلك في قوله تعالى:

١- ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَاتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الأنعام : ١٣٤).

٢- ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

(يونس: ٥٣)

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٢/٢٧٧

٣- ﴿الَّذِينَ يَصْنُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُوثَهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (هود : ١٩-٢٠)

٤- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (هود : ٣٣)

٥- ﴿أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (النحل : ٤٥-٤٦)

٦- ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (النور : ٥٧)

٧- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (العنكبوت : ٢٢)

٨- ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (الزمر : ٥١)

٩- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى : ٣١)

وجميع هذه الآيات للوعيد في المستقبل ، وجميعها في سور مكية ، إلا سورة النور فهي مدنية ، ونزلت بعد غزوة بني المصطلق التي كانت في شعبان سنة ست من الهجرة ، فجميع هذه السور (التي جاء فيها اسم الفاعل "معجز" منوئا وبالنون) نزلت قبل سورة التوبة بزمن ، وقبل الفتح والإمهال ، واقترب انتهاء الشرك في مكة .

والملاحظ في سياقات لفظ "معجز" (بالتنوين) ولفظ "معجزين" أن كل سياق منها يتوعد المشركين وهم في حال تمكين وأمن من مكر الله ، وقدره على إيذاء رسل الله تعالى والسخرية بهم .

فالسياق يتوعدهم وهم في مظاهر القوة والغلبة ؛ فجميع هذه المواضع

جاءت في سور مكية ، ما عدا سورة النور فهي مدنية ، وقد كان أهل مكة موضع غلبة في وقت نزولها أيضًا.

فسورة النور المدنية تحدثت عن قصة الإفك في أعقاب الرجوع من غزوة بني المصطلق التي كانت في شهر شعبان لسنة ست من الهجرة ، أي قبل صلح الحديبية الذي كان في شهر ذي العقدة سنة ست من الهجرة ، وهو الصلح الذي تم بين مشركي مكة والمسلمين ، بعد أن صدّ المشركون المسلمين عن العمرة ، وكانت بنود الصلح في ظاهرها لصالح المشركين^(١) ، وهو يبين أن المشركين حتى هذا الوقت كانوا في موضع قوة وغلبة ، وهو مغاير لحالهم بعد الفتح عند نزول سورة التوبة .

فجاء لفظ "معجز" المنوّن ولفظ "معجزين" مع دلالة غلبة الشرك ومظاهر قوته ، وهما بذلك وعيد في صيغته الأصلية الدالة على الزمن المستقل ؛ لعدم وجود مسوِّغ للعدول إلى الإضافة ليكون الوعيد كالمتحقق ، بينما جاء الوعيد في سورة التوبة في قوله "غير معجزى الله" بصيغة الإضافة ليكون الوعيد كالمتحقق ، لمسوِّغ انتهاء قوة المشركين بالفتح وقرب القضاء عليهم.

فجاء العدول تأكيدًا على وقوع الوعيد بالمشركين إذ ظهرت بشائره ، وفرحًا بما حققه المسلمون من فتح مبين .

وقد جاء مع الوعيد في "غير معجزى الله" تركيبٌ "مخزي الكافرين" وهو وعيدٌ في صورة المتحقق ، مثل "غير معجزى الله" للمسوِّغ نفسه .

(١) انظر: المباركفوري ، الرحيق المختوم ، صفحة ٣٣١ تحدثت عن غزوة بني المصطلق ونزول سورة النور متحدثًا عن قصة الإفك. وفي الكتاب نفسه ، صفحة ٣٤٢ تحدثت عن صلح الحديبية وبنوده.